

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨) [الأعراف: 48]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ كَلَامَ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ بِالسَّلَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾: أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُكَلِّمُونَ أَهْلَ النَّارِ بِالتَّوْبِيخِ وَاللُّومِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾⁽¹⁾.

تُؤَبِّخُ أَهْلَ
الْأَعْرَافِ لِأَهْلِ
النَّارِ، وَمَا
جَنَاهُ عَلَيْهِمُ
الْكُفْرُ وَالْحَسَدُ
وَالِاسْتِكْبَارُ

❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أَغْنَىٰ﴾: الْغَيْنُ وَالنُّونُ وَالْحَرْفُ الْمَعْتَلُ تَدُورُ كَثِيرٌ مِنْ اشْتِقَاقَاتِهَا عَلَى مَعْنَى الْكِفَايَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فَلَانٌ لَا يُغْنِي غِنَاءَ فَلَانٍ، أَيْ: لَا يَكْفِي كِفَايَتَهُ⁽²⁾، وَالْغِنَاءُ: الْكِفَايَةُ وَالْإِجْزَاءُ⁽³⁾، وَمَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ﴾: مَا أَجْزَأَ عَنْكُمْ، وَمَا نَفَعَكُمْ.

(2) ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾: الْكَافُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ تَدُلُّ تَصَارِيفُهَا عَلَى ضِدِّ الصَّغَرِ، وَمِنْهُ: الْكِبَرُ؛ وَهُوَ الْهَرَمُ، وَالْكَبَرِيَاءُ؛ وَهِيَ: الْعِظَمَةُ⁽⁴⁾، وَالْكَبَرُ: هُوَ التَّرَفُّعُ عَنِ الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ، وَالطُّغْيَانُ فِي دَفْعِهِ، وَاحْتِقَارُ النَّاسِ وَالْإِزْرَاءُ بِهِمْ⁽⁵⁾، وَهَذَا الْمَفْهُومُ عَبَّرَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغِهَا؛ فَقَالَ: «الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»⁽⁶⁾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/406.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

(5) ابن الجوزي، كشف للشكل من حديث الصحيحين: 3/323.

(6) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (91).

والسَّيْنُ وَالنَّاءُ فِي ﴿تَسْتَكَبِّرُونَ﴾ دَالَّةٌ عَلَى الْقُوَّةِ لَا الطَّلَبِ، فَمَعْنَى ﴿تَسْتَكَبِّرُونَ﴾: قَوِي كِبَرُكُمْ⁽¹⁾.

❁ المعنى الإجمالي:

أَهْلُ الْأَعْرَافِ
يُبْتَغُونَ رُؤُوسَ
الْكَفَرِ فِي هَذَا
الْمَوْقِفِ الْعَسِيرِ،
وَسَطَ الْإِلَهِيَّةِ
الْمُسْتَعْرِ

فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَادَى أَهْلُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا مِنْ قَادَةِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَاتِ أَهْلِ النَّارِ، قَالُوا لَهُمْ: مَا نَفَعُكُمْ مَا كُنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالرِّجَالِ فِي الدُّنْيَا، وَمَا نَفَعُكُمْ اسْتِعْلَاؤُكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَقَبُولِ الْحَقِّ⁽²⁾. وَتُرْشِدُ الْآيَةُ إِلَى أَنَّ جَمَعَ الْمَالِ وَالرِّجَالِ فِي الدُّنْيَا لَا يَنْفَعُ مَنْ مَاتَ كَافِرًا مُشْرِكًا مِنْ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالْفُسَادِ.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

عِلَّةٌ وَضِلْ نِدَاءِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ بِمَا قَبْلَهُ:

شَمَاتَةُ أَصْحَابِ
الْأَعْرَافِ فِي أَهْلِ
النَّارِ وَقَادَتِهِمْ،
جُزْءٌ مِنَ الْجَوَارِ

وُضِلَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ بِالْجُمْلَةِ قَبْلَهُ؛ لِمَا بَيَّنَّهُمَا مِنَ التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْكَمَالَيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجُمْلَتَيْنِ خَبَرَتَانِ، وَبَيْنَهُمَا تَنَاسُبٌ؛ إِذْ هَذِهِ الْآيَةُ وَارِدَةٌ لِاسْتِكْمَالِ حَدِيثِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ.

نُكْنَتُهُ التَّغْيِيرِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَى﴾:

أَخْبَارُ اللَّهِ تَعَالَى
لَيْسَ فِيهَا رُؤُوسٌ،
وَقَدْ أُثْبِتَ الزَّمَانُ
صَحَّتْهَا فِي كُلِّ
الْعُصُورِ

النِّدَاءُ الْوَارِدُ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ مُسْتَقْبَلٌ، فَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ، لَكِنَّهُ وَرَدَ هَهُنَا - عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ - بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِي (نَادَى) مَعَ أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ؛ لِلإِشْعَارِ بِتَحَقُّقِ وَقْعِ هَذَا النِّدَاءِ، وَأَنَّهُ مِمَّا لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْوَجْهِ الْمُخْبَرِ بِهِ فِي الْآيَةِ.

(1) الْحَمْلَاوِيُّ، شَذَا الْعَرْفِ فِي فَنِّ الصَّرْفِ، ص: 35.

(2) ابْنُ جَرِيرٍ، جَامِعُ الْبَيَانِ: 12/467، وَنَخْبَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، التَّفْسِيرُ لِلْبَيْتِ، ص: 156.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالنَّدَاةِ ﴿وَنَادَى﴾، وَأَثَرُهُ فِي الْمَعْنَى:

النَّدَاءُ فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا﴾
خِطَابٌ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ لِأَهْلِ النَّارِ، وَعُبِّرَ عَنْ هَذَا الْخِطَابِ
بِالنَّدَاءِ كِنَايَةً عَنْ بُلُوغِهِ إِلَى أَسْمَاعِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ مَسَافَةِ سَحِيقَةِ
الْبُعْدِ، وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى بُعْدِ أَصْحَابِ النَّارِ وَانْحِطَاطِ أَقْدَارِهِمْ؛ حَيْثُ
بَعُدُوا عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ بِحَيْثُ صَارَ الْخِطَابُ بَيْنَهُمْ مِنْ بَابِ
الْمُنَادَاةِ، فَكَيْفَ يُبْعِدُهُمْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ؟

دَلَالَةُ (ال) فِي لَفْظِ ﴿الْأَعْرَافِ﴾:

اللَّامُ فِي (الْأَعْرَافِ) مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ
الْأَعْرَافِ رَجَالًا﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّرِيحِيِّ؛ لِتَقْدُّمِ ذِكْرِهِ صَرِيحًا
فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رَجَالٌ﴾، فَلَا يُرَادُ كُلُّ أَصْحَابِ
الْأَعْرَافِ، وَإِنَّمَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَيَقْوِي ذَلِكَ قَوْلُهُ هُنَا: ﴿رَجَالًا
يَعْرِفُونَهُمْ﴾؛ إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يُنَادِيَ أُولَئِكَ الرِّجَالُ كُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى
الْأَعْرَافِ، وَلَا أَنْ يَعْرِفَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ جَمِيعٌ مَنْ كَانَ عَلَى الْأَعْرَافِ، مَعَ
تَبَايُنِ الْعُصُورِ، وَاخْتِلَافِ الْأُمَمِ، فَأَفَادَ هَذَا كُلَّهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَصْحَابِ
الْأَعْرَافِ: الرِّجَالُ الْمَذْكُورُونَ قَبْلَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ
رَجَالٌ﴾، وَالْمَعْنَى: وَنَادَى أُولَئِكَ الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى الْأَعْرَافِ رَجَالًا
يَعْرِفُونَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ⁽¹⁾.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا﴾، أَظْهَرَ
الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ - ﴿أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ - وَلَمْ يُضْمَرْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا﴾؛ إِذْ لَمْ يَرِدِ النِّظْمُ الْقِرْآنِيُّ:
(وَنَادَوْا رَجَالًا)، وَذَلِكَ لِأَرْبَعِ نِكَاتٍ: إِحْدَاهَا: زِيَادَةُ التَّقْرِيرِ⁽²⁾،

انْحِطَاطُ أَقْدَارِ
أَصْحَابِ النَّارِ،
بَسَبَبِ الْهَلَاكِ
وَالضَّلَالِ وَالْعَارِ

النَّدَاءُ صَادِرٌ
مِنْ طَائِفَةٍ مِنْ
أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ
لَا مِنْ جَمِيعِهِمْ

زِيَادَةُ التَّقْرِيرِ
وَمَزِيدُ
التَّخْصِيسِ، فِي
عَنْوَةِ الْقِصَّةِ،
بِمَنْ مَارَسَ
أُخْدَانَهَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/144.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.

ثانيها: لئلا يَلْتَبَسَ المسندُ إليه حالَ إضمارِهِ بأصحابِ الجنَّةِ، وذلكَ لأنَّهُ لما تعدَّدَ في الآيةِ المتقدِّمةِ ما يَصْلَحُ لِعَوْدِ الضَّمائِرِ إِلَيْهِ؛ دُفِعَ اللَّبْسُ بالتَّصريحِ بالمسندِ إليه مُظْهِراً، ولم يُضْمَرْ⁽¹⁾، **ثالثها:** التَّفريقُ بَيِّنَ المرادِ بأصحابِ الأعرافِ في هذه الآيةِ، والمرادُ بهم فيما تقدَّم؛ وذلكَ أَنَّ النِّداءَ فيما تقدَّمَ صادرٌ مِنَ الجميعِ، وفي هذه الآيةِ مِنَ بعضِهِمْ⁽²⁾.

رابعها: أَنَّ هذا النِّداءَ خاصٌّ في موضوعٍ خاصٍّ؛ فكان مستقلاً دون ما قبله الموجهُ إلى أهل الجنَّةِ في جملتهم⁽³⁾.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿رَجَالًا﴾ فِي أَثْنَاءِ السِّيَاقِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمَ لفظَ ﴿رَجَالًا﴾ للإشارةِ إلى أَنَّ أصحابِ الأعرافِ يخاطبونهم فُرَادَى تَقْرِيعًا وتذكيرًا بَسِيئاتِهِمْ منفردين عن غيرهم⁽⁴⁾.

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿رَجَالًا﴾:

نُكِّرَتْ ﴿رَجَالًا﴾ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى إِرَادَةِ عَدَمِ التَّعْيِينِ، فَهَم رَجَالٌ غَيْرُ مُعَيَّنِينَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُونَ مُعَيَّنِينَ، وَهَم رُؤَسَاءُ الْمُشْرِكِينَ، كَأَبِي جَهْلٍ وَعُتْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ وَنَحْوَهُمَا⁽⁵⁾، وَنُكِّرَ لَفْظُ الرَّجَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا﴾ تَحْقِيرًا لَهُمْ وَحِطًّا لِشَأْنِهِمْ، وَدَفْعًا لِتَوَهُّمِ إِرَادَةِ الْكَمَالِ بِتَعْرِيفِ لَفْظِ ﴿رَجَالًا﴾ بِاللَّامِ، وَلَا سِيَّما أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي وَاجِهَةِ الْقَوْمِ، وَأَعْطَوْا لَأَنْفُسِهِمْ مَكَانَةً بِأَنَّهُمْ هُمُ الرِّجَالُ دُونَ غَيْرِهِمْ؛ فَجَاءَ هَذَا الْمَشْهُدُ لِيَسْلُبَهُمْ كُلَّ ذَلِكَ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/407، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/144.

(2) الألوسي، روح المعاني: 4/364.

(3) محمد رضا، تفسير النار: 8/385.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2851.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 5/59.

إِبْطَالُ الْوَهْمِ
الَّذِي عَاشَهُ قَادَةُ
الْكُفْرِ فِي الدُّنْيَا

حَقَاقَةُ أَصْحَابِ
النَّارِ جَمِيعًا،
وَاخْتِصَاصُ
رُؤَسَاءِ أَهْلِ
الشَّزْكِ بِمَزِيدٍ
مِنْهَا

سِرُّ تَرْكِ ذِكْرِ الْمَرْكَبِ الْإِضَافِيِّ مَعَ ﴿رَجَالًا﴾:

استغنى القرآن الكريم عن ذكر أصحاب النار، فلم يقل: (رجالاً من أصحاب النار)؛ لأنَّ الكلام المذكور في الآية ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يليق إلا بهم، فهو عنوانٌ عليهم، ووصفٌ لأكابريهم، ودليلٌ على حذف (أصحاب النار).

تَرْكِ التَّصْرِيحِ
لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ
عَلَيْهِ

سِرُّ تَكَرُّرِ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُمْ﴾:

أَعَادَ ذِكْرَ الْفِعْلِ «يَعْرِفُونَهُمْ»، مع سبقي هذا الفعل: قبل ذلك في قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾؛ لاختلاف المعرفتين، فالسَّابِقَةُ مَعْرِفَةٌ عَامَّةٌ، فَمَعَ أَهْلَ النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعَيُونِ، أَمَّا هُنَا؛ فَيَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ الْخَاصَّةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ بِسِيمَا الْمُسْتَكْبِرِينَ؛ لِأَنَّهَا تَغْلِبُ عَلَيْهِمْ، وَتَكُونُ عَلَامَةً تَدُلُّ عَلَيْهِمْ⁽¹⁾.

فَرَقٌ بَيْنَ
الْمَعْرِفَةِ الْعَامَّةِ،
وَالْمَعْرِفَةِ الْخَاصَّةِ

دَلَالَةُ (الْبَاءِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾:

(الْبَاءُ) فِي «بِسِيمَتِهِمْ» مِنْ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ لِلْمَلَابَسَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ عَلَامَاتِ أَصْحَابِ النَّارِ - مِنْ أَسْوَادِ الْوُجُوهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - مَلَابِسَةٌ لَهُمْ وَمُلَازِمَةٌ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ سَبَبِيَّةً، أَيُّ: إِنَّهُمْ عَرَفُوهُمْ بِسَبَبِ عَلَامَاتٍ فِيهِمْ دَلَّتْ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ النَّارَ قَدْ أَكَلَتْهُمْ، وَغَيَّرَتْ مَعَالِمَهُمْ مَعَ تَغْيِيرِهِمْ بِالْأَسْمَنِ وَسَوَادِ الْوُجُوهِ، وَعِظَمِ الْجُثْثِ⁽²⁾.

أَسْوَدَادُ وَجُوهِهِ
أَصْحَابِ النَّارِ،
عَلَامَةٌ مُلَازِمَةٌ
لَهُمْ، لِأَسْوَادِ
قُلُوبِهِمْ

عِلَّةُ الْفَصْلِ فِي: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ قَبْلَةُ﴾:

فَصَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لَوْقُوعِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بَيَانًا لِلْجُمْلَةِ قَبْلَهَا أَوْ بَدَلًا مِنْهَا⁽³⁾،

تَفْسِيرُ نِدَاءِ
أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ
لِلْأَصْحَابِ النَّارِ

(1) محمد رضا، تفسير النار: 8/385.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 1/37.

(3) الألوسي، روح المعاني: 4/364.

وعلى كلا الوجهين يكون بين الجملتين كمال الاتصال؛ فالوصل مُتَعَيِّنٌ.

وكونها بياناً: أولى، وذلك لما في إطلاق النداء من الإبهام الذي تتطلع معه النفس إلى معرفة مضمونه.

ويجوز أن يكون الفصل من باب الاستئناف البياني، فيكون بين الجملتين شبه كمال الاتصال، وذلك أن قوله ﷺ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾، يبعث في النفس سؤالاً: ما مضمون هذا النداء وما حقيقته؟ فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾.

سر التعبير بالقول دون النداء:

في قوله: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، عبّر بالقول دون النداء؛ لأن القول أعم من النداء، ولأن الغرض من القول التبكيت والتوبيخ؛ لأنهم في الدنيا ما كانوا يسمحون للضعفاء والفقراء من أهل الإيمان بالقول، فأراد الله أن يسمعهم قولهم.

براعة المجاز للركب:

قول الله سبحانه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ يحتمل أن يكون خبراً أو استفهاماً.

فعلى الخبر يحمل معنى الآية على الخبرية، ويكون الخبر خارجاً عن أصل دلالاته من فائدة الخبر أو لازمها إلى معنى مجازي؛ وهو شماتة أصحاب الأعراف بوقوع المخاطبين من أهل النار في العقوبة، وفي ذلك تبكيت عظيم يحصل لأصحاب النار بسبب هذا الكلام⁽¹⁾.

وعلى دلالة الاستفهام في قول الله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ يكون من باب توبيخ أهل النار وتقرعهم، وهذا عذاب يزداد فوق عذابهم الذي هم فيه.

التوبيخ مستحق
لأصحاب
الوجاهة الذين
جمعوا الأموال،
واستكبروا عن
الحق

تبكيت أصحاب
النار والشماتة
بهم، بما قدمت
أيديهم من
فساد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/146.

وهذا المعنى صَوَّبَهُ ابن عطية⁽¹⁾، ويكون الاستفهامُ خارجاً عن دلالةِ الحقيقةِ مِنْ إرادةِ طلبِ العلمِ بشيءٍ لَمْ يَكُنْ معلوماً مِنْ قَبْلُ، والمرادُ به التَّوْيِيخُ والتَّقْرِيعُ⁽²⁾، وذلك متضمنٌ معنى النَّفْيِ أيضاً، ولا إشكالَ في ذلك، حيث آلَ معنى الجملةِ حالَ حملها على الخبريةِ إلى معناها حالَ حملها على الإنشائيةِ، وذلك أَنَّ الخبرَ الْمَنْفِي يُرَادُ به الشَّماتَةُ والتَّبَكُّيتُ، والاستفهامُ يُرَادُ به النَّفْيُ والتَّوْيِيخُ، وهي معانٍ مُتَأَيِّلَةٌ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بقوله: ﴿مَا أَغْنَى﴾ دُونَ غيرها في الآية:

أثر التَّعْبِيرِ بمادة الغنى في قوله: ﴿مَا أَغْنَى﴾؛ لَأَنَّهَا تدلُّ على عدَّةٍ معانٍ، منها: عدمُ الاحتياج، وكثرةُ المقتنيات، وهذا ما كان يدَّعيه قادةُ الكفر في مكَّة. وذلك بما أعطاهم الله من المال والولد؛ كما ذكر القرآنُ ذلك عنهم بقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۚ وَبَيْنَ يَدَيْهِ شُهُودًا ۝﴾ [الدحر: 11 - 13]، فكانوا يستغنون بذلك عن نعيم الجنَّة، ويقولون: لا حاجة لنا بنعيم الجنَّة، فجاء هذا القولُ من باب التَّبَكُّيت.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿عَنْكُمْ﴾ في السِّياق:

قوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَنْكُمْ﴾ لإفادة تخصيصِ هذه الفئة وتعيينها، الَّتِي استغنت بمالها وولدها، وَلِتَمَيِّزُهَا عن غيرها من بقيةِ الكفار.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بلفظِ ﴿جَمْعُكُمْ﴾ في أثناء السِّياق:

(الْجَمْعُ) في قولِ الله سبحانه: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ به: جَمْعُ النَّاسِ، والمعنى: ما أَغْنَتْ عَنْكُمْ كَثَرَتُكُمْ الَّتِي تَعْتَزُّونَ بها، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ (الْجَمْعُ) مصدرًا، يُرَادُ به:

تَطَاوُلُ الْكُفَّارِ
على شرع الله،
بما أعطاهم
سبحانه من
غنى

إذا كان الوصلُ
بالله مقطوعًا،
فلا يُغْنِي مَالٌ
ولا جَاهٌ

لا يُغْنِي عَنْ
أَصْحَابِ النَّارِ
شَيْءٌ، مَهْمَا
تَنَوَّعَ وَتَعَدَّدَ
وَكَثُرَ

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 2/405.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/407.

اسمُ المَفْعُولِ، والمعنى: ما أَغْنَى عَنْكُمْ الذي جَمَعْتُمُوهُ مِنَ المَالِ (1)، فهو كقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ [الحاقة: 28]، فيكون مجازاً مرسلًا، بعلاقة التعلُّق الاشتقاقي.

ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعْبِيرَ بلفظ الجمع يشير إلى العصبية الجاهلية التي كانت تجمعهم على العناد والغطرسة، فكأن كلمة الجمع لا تنفك وصفًا عن ذواتهم التي استكبرت عن الإيمان بالآيات التي أنزلها الله على رسوله.

دلالة التعبير بالمصدر ﴿جَمَعْتُمْ﴾ دون غيره:

والتَّعْبِيرُ بلفظ المصدرِ ﴿جَمَعْتُمْ﴾ أبلغ؛ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ نَفْسَ الْجَمْعِ لَمْ يَكُنْ عَنْهُمْ شَيْئًا، بَقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْمَجْمُوعِ؛ فَإِنَّهُ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ أَنْوَاعُهُ، وَتَعَدَّدَتْ أَفْرَادُهُ؛ فَإِنَّهَا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ.

سِرُّ زِيَادَةِ فِعْلِ الْكَوْنِ ﴿كُنْتُمْ﴾:

جاءَ التَّعْبِيرُ بِفِعْلِ الْكَوْنِ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ دونَ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ الْقِرَائِيُّ: ﴿وَمَا تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ اسْتِكْبَارَهُمْ لَمْ يَكُنْ أَمْرًا عَارِضًا، وَإِنَّمَا كَانَ خُلُقًا تَكُونُوا عَلَيْهِ وَتَخْلُقُوا بِهِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ (2).

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

يُلاحِظُ فِي اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، دُونَ الْمَاضِي: (اسْتَكْبَرْتُمْ) إِظْهَارَ قُبْحِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي صُورَةِ مَا يُعْمَلُ فِي الْحَالِ؛ لِيَسْتَحْضِرُوا مُوجِبَ عَذَابِهِمْ وَقَتَّ تَعْذِيبِهِمْ، فَيَكُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ فِي حَسْرَتِهِمْ وَأَبْلَغَ فِي تَبْكِيَتِهِمْ.

الْجُمُوعُ لَا تَنْفَعُ
مَا لَمْ تَكُنْ فِي
طَاعَةِ اللَّهِ،
مُؤَدِّيَةً لِسُرْعِهِ
وَهَذَا

تَخَلَّقُ أَصْحَابُ
النَّارِ فِي الدُّنْيَا
بِالِاسْتِكْبَارِ،
وَاسْتِمْرَارِهِمْ
عَلَيْهِ

اسْتِخْصَارُ
مُوجِبِ الْعَذَابِ،
أَشَدُّ فِي حَسْرَةِ
الْمُعْذِبِينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/145.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.

دَلَالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ فِعْلِ «تَسْتَكْبِرُونَ» فِي السِّيَاقِ:

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ فِعْلِ الاسْتِكْبَارِ فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ»، إيماءً إلى تَخْلُقُهُمْ بِعُمُومِ أَفْرَادِ هَذَا الْخُلُقِ الذَّمِيمِ، فَهَمَّ قَدْ تَكَبَّرُوا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَتَكَبَّرُوا عَلَى الْخَلْقِ⁽¹⁾، فَحَذَفَ الْمُتَعَلِّقُ كَانَ مُؤْذِنًا بِالْعُمُومِ مُشْعِرًا بِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَذْفُ الْمُتَعَلِّقِ لِدَلَالَةِ الْقَرِينَةِ عَلَيْهِ، وَأَنْ الْمُرَادَ بِهِ: التَّكَبُّرُ عَلَى الْخَلْقِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ بَعْدُ: «أَهْلُوا لَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ».

التَّكَبُّرُ صَرْبَانِ:
تَكَبَّرَ عَلَى
الْخَلْقِ، وَتَكَبَّرَ
عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ

وَيَنْضُمُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الْحَذْفَ أَلِيقٌ بِالتَّنَاسُبِ الصَّوْتِيِّ لِأَوَاخِرِ الْآيِ؛ إِذْ لَوُضَّصَ عَلَيْهِ؛ لِفَاتِ هَذَا التَّنَاسُبِ.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ:

(ما) فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» مُصَدَّرِيَّةٌ، وَالْمَعْنَى: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَاسْتِكْبَارُكُمْ؛ وَصِيَغَ الْاسْتِكْبَارِ مِنَ الْفِعْلِ دُونَ الْمَصْدَرِ، فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ الْقِرَائِيُّ: (ما أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَاسْتِكْبَارُكُمْ)؛ لِيَتَوَسَّلَ بِالْفِعْلِ إِلَى إِيرَادِهِ مُضَارِعًا، فَيُفِيدَ أَنَّ اسْتِكْبَارَهُمْ كَانَ عَادَةً لَهُمْ وَطَبْعًا، لَا يَنْقَطِعُونَ عَنْهُ، وَلَا يَفْتَرُونَ⁽²⁾.

اسْتِكْبَارُ أَصْحَابِ
النَّارِ كَانَ عَادَةً
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا،
وَطَبْعًا مُتَأَصِّلًا

سِرُّ اخْتِيَارِ الْاسْتِكْبَارِ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ»:

أَثَرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ التَّعْبِيرَ بِالْاسْتِكْبَارِ؛ لِأَنَّهُ يَشِيرُ إِلَى نَظَرَةِ قَادَةِ الْكُفْرِ إِلَى أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، فَيُرَوْنَهُمْ ضِعْفَاءَ فَقَرَاءَ عِبِيدَاءَ؛ لِذَلِكَ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَسْتَعْلُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَصِفُونَهُمْ بِأَنَّهُمْ أَرَادُلُ الْخَلْقِ، وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ فِي اسْتِكْبَارِهِمْ عَلَى أَتْبَاعِ نُوحٍ، قَالَ تَعَالَى: «وَمَا تَرَكْنَا أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ»؛ لِذَلِكَ كَانَ التَّبَكُّيْتُ لَهُمْ مِنْ جِنْسٍ مَا فَعَلُوا.

الاسْتِكْبَارُ مَانِعٌ
مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/146.

جَمُوعُ الْكُفْرِ
تُؤَدِّي إِلَى
الْاِسْتِكْبَارِ،
وَالْعُتُوفِ فِي الْأَرْضِ

سِرُّ الْجَمْعِ بَيْنَ تَجْمِيعِ الْأَمْوَالِ وَالرِّجَالِ، وَالِاسْتِكْبَارِ، فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ:

في قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، جمع القرآن الكريم بين جَمْعِهِم واستكبارهم ولم يكتفِ بواحدةٍ منهما؛ لشِدَّةَ التَّلَازُمِ بينهما، فَالْجَمْعُ يكونُ لِلاتِّبَاعِ والأشْيَاءِ، وَيُطْلَقُ على جمع المال أيضًا، والاسْتِكْبَارُ ناتجٌ عن هذا الْجَمْعِ الَّذِي أَدَّى إِلَى الاستكبار، ولذلك يكون المعنى: ما أغنى عنكم أتباعكم، والذي كنتم تستكثرونه من الأموال⁽¹⁾.

❁ الفُرُوقُ الْمُجْمِئَةُ:

(الاسْتِنْكَافُ) وَ(الِاسْتِكْبَارُ):

الِاسْتِنْكَافُ
مَرَحَلَةٌ أَعْلَى مِنْ
الِاسْتِكْبَارِ

الِاسْتِنْكَافُ وَالِاسْتِكْبَارُ متغايران، بدليل ورودِهِما متعاطِفَيْنِ في قولِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِيهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 172]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 173].

فَالِاسْتِنْكَافُ: الْأَنْفَةُ وَالتَّرَفُّعُ، وَمَعْنَاهُ: الانْقِبَاضُ وَالِامْتِنَاعُ عَنِ الشَّيْءِ مِنْ بَابِ الْحَمِيَّةِ وَالْعِزَّةِ، فَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الْاِسْتِكْبَارِ، وَأَمَّا الْاِسْتِكْبَارُ: فَهُوَ دُونَ الْاِسْتِنْكَافِ؛ وَلِذَا عُطِفَ عَلَيْهِ فِي الْآيَتَيْنِ الْمُتَقَدِّمَتَيْنِ، مِنْ بَابِ التَّدْلِي، فَالِاسْتِنْكَافُ: طَلَبُ الْكِبَرِ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُظْهِرُ مِنْ نَفْسِهِ مَا لَيْسَ لَهُ.

وَالسَّيْنُ وَالتَّاءُ فِي الْاِسْتِكْبَارِ تَدُلُّ عَلَى الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ، فَاسْتَكْبَرَ، أَيَّ: قَوِيَ كِبَرُهُ وَعَظُمَ، وَأَمَّا السَّيْنُ وَالتَّاءُ فِي الْاِسْتِنْكَافِ فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى الطَّلَبِ وَالتَّحَوُّلِ فِي التَّرَكِّ مَعَ أَنْفَةٍ وَتَكْبُرٍ وَامْتِنَاعٍ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْاِسْتِكْبَارِ.

أما القول المنسوب إلى المبرد رحمه الله من كون السين والتاء في

(1) الألويسي، روح المعاني: 8/125.

الاستنكاف للسُّلْب، فهو مبنيٌّ على أَنَّ أصلَ الكلمة مشتقٌّ من النَّكَفِ، وهو قَوْلُ السَّوِّءِ أو الْعَيْبِ، كما تقول العرب: "ما عَلَيْهِ في هَذَا الْأَمْرِ نَكْفٌ وَوَكْفٌ"، أي: عَيْبٌ، فعلى هذا القولِ تكونُ السَّيْنُ والتاءُ في "اسْتَفْعَلَ" لسُّلْبِ المعنى من الْعَيْبِ إلى ما يضاؤُهُ، وهو فعلُ الْعَيْبِ وارتكابُ المعيبِ مع علوّ وارتفاعٍ وأنْفَةٍ⁽¹⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نكف)، والشوكاني: فتح القدير: 1/625، والآلوسي، روح المعاني: 3/211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/59، والدَّورِي، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 194 - 195.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 13، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 8-9948-768-09-978

يشتمل على ارجاعات ببلوجرافية.

مج. 13: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

التقييم الدولي: 8-9948-768-09-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»